السنة وصحتها والشريعة ومتانتها

رد على دعاة النصرانية بمصر

٢

﴿ تتمة واستدراك — استنكار المتأخرين لبعض متون أبي هريرة ﴾

قد علم مما تقدم أن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه راوية ثقة عدل وانه من نوابغ البشر في الحفظ والضبط لما يحفظ وقوة الذكر (الذاكرة) وعلم أيضا أنه انفرد بأحاديث كثيرة كان بعضها موضع الانكار أو مظنته لغرابة موضوعها كأحاديث الفتن وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم ببعض المغيبات التي تقع بعده ؛ ويزاد على ذلك أن بعض تلك المتون غريب في نفسه، ولو انفرد بمثله غير صحابي لعدّ من العلل التي يتثبت بها في روايته، كما هو المعهود عند نقاد الحديث أهل الجرح والتعديل ، ولذلك ترى الناس ما زالوا يتكلمون في بعض روايات أبي هريرة كما رأى القراء في [دروس سنن الكائنات] للدكتور محمد توفيق صدقي ، وأول كلمة طرقت سمعي في ذلك كانت من تلميذ مسلم في مدرسة غير اسلامية ببلاد الشام ، وكان ذلك في أوائل العهد بطلبي للعلم . ومن عرف ترجمة أبي هريرة معرفة تامة يجزم بعدالته وبراءته من الكذب على أحد من الناس ، بله الكذب على رسول الله (ص) الذي روى هو وغيره عنه انه قال « من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وقد صرحوا بأن هذا الحديث متواتر

ولعل قراء المنار يتذكرون ما علقته على كلام محمد توفيق صدقي في حديث الذباب — وتطرقه فيه الى الارتياب في رواية أبي هريرة — اذ بينت بالايجاز انه لا مجال للطعن في أبي هريرة نفسه وأن حديث الذباب وأمثاله مما يستبعد أن يكون مسموعا من النبي (ص) لا يظهر علة نقلها عن أبي هريرة الا اذا أحصيت تلك

الروايات ولا سيما ما انفرد به ابو هريرة منها ، ودُقق النظر في أسانيدها ومتونها ، وما يمكن طروءه من الاحتمالات فيها ، وامهات هذه الاحتمالات أربعة :

(أحدها) أن يكون في رجال السند الى أبي هريرة من هو مجروح وان صحح

(ثانيها) أن يكون ذلك الحديث أو الأثر مرويا عنه بالمعنى وقد وقع الغلط من أحد الرواة في فهمه فنقله كما فهمه

(ثالثها) أن يكون ما روي حديثا رأيا لأبي هريرة أوغيره ممن روى عنه وعده بعض الرواة حديثا لاجتهاده بأن مثله لا يقال بالرأي ، فما قاله العلماء من أن قول الصحابي اذا كان لا يقال مثله بالرأي له حكم المرفوع الى النبي (ص) لا يصح على إطلاقه ، والناس يتفاوتون في فهم ذلك ، فما يعده بعضهم منه لا يعده الآخر منه ؛

(رابعها) ان يكون رواه عن أهل الكتاب بالسماع ممن أسلم منهم ككعب الاحبار أو رآه في كتبهم وهو مما لا مجال للرأي فيه فيعده من قبيل المرفوع من يأخذ ذلك القول قاعدة عامة ؛ وقد ثبت ان أبا هريرة روى عن كعب الاحبار وأن معاوية قال في كعب الاحبار انهم كانوا يبلون (أي يختبرون) عليه الكذب ؛ وقد تقدم ذلك في هذا المقال نقلا عن البخاري ، وانني كنت أسيء الظن في روايات كعب الاحبار قبل أن أرى مارواه البخاري عن معاوية فيه ، وكذا وهب بن منبه .

ثم انني بعد كتابة ما تقدم وقبل طبعه رأيت في تفسير سورة النمل من تفسير الحافظ ابن كثير بعد ذكر عدة روايات عن الصحابة في قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام ما نصه :

« والاقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى فيما نقلاه الى هذه الامة من أخبار بني اسرائيل من الاوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ ، وقد أغنانا الله عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة » اهـ

فجملة القول في هذه الاحاديث المشكلة اذا كانت مرفوعة الى النبي (ص) أو موقوفة على أحد رواة الصحابة (رض) أبي هريرة أو غيره ان يدقق النظر في أسانيدها أولا فاذا كان في الاحتجاج ببعض رجالها مقال كفينا أمرها وكذا اذا

كان فيها انقطاع أو ارسال، والا نظرنا في غير ذلك من الوجوه التي يكون بها المخرج كغلط الرواة بسبب النقل بالمعنى أو غيره من الاسباب ، وأدهى الدواهي أن يكون الحديث مأخوذاً عن بعض أهل الكتاب بالقبول ولم يعز اليه ، ولا يغرنك قولهم ان مراسيل الصحابة حجة وان الموقوف الذي لا مجال للرأي فيه له حكم المرفوع ، فاذا ثبت ان أبا هريرة مثلا كان يروي عن كعب الاحبار وأن الكثير من أحاديثه مراسيل فالواجب أن يتروّى في كل غريب لم يصرح فيه بالسماع من النبي (ص) فاذا كان من الاسرائيليات أو ما في معناها احتمل ان يكون قد رواه عن كعب وكان هذا الاحتمال علة مانعة من ترجيح اسناد كلام الى النبي (ص) يوقع في الاشكال .

لا يتسع هذا الموضع لتحرير هذا البحث بالتفصيل ولكنا نذكر أهل العلم بحديث يرون فيه اكبر عبرة في هذا المقام وهو حديث الجساسة الذي حدّث به تميم الداري رسول الله (ص) واخرجه مسلم في صحيحه مرفوعا من طرق يخالف بعضها بعضا في متنه ، فهذا الخلاف في المتن علته من بعض رواة الصحيح ، ولا يظهر حمله على تعدد القصة ، ثم ان رواية الرسول (ص) له عن تميم الداري إن سلم سندها من العلل هل تجعل الحديث ملحقا بما حدث به النبي (ص) من تلقاء نفسه فيجزم بصدق اصله ، قياسا على اجازته (ص) او تقريره للعمل اذ يدل حله وجوازه؟ الظاهر لنا ان هذا القياس لا محل له هنا ، والنبي (ص) ما كان يعلم الغيب فهو كسائر البشر يحمل كلام الناس على الصدق اذا لم تحف به شبهة، وكثيرا ما صدق المنافقين والكفار في احاديثهم، وحديث العرنيين واصحاب بئر معونة مما يدل على ذلك ، وانما كان يعرف كذب بعض الكاذبين بالوحي او ببعض طرق الاختبار او اخبار الثقات ونحو ذلك من طرق العلم البشري، وانما يمتاز الانبياء على غيرهم بالوحي، والعصمة من الكذب وما كان الوحي ينزل الا في امر الدين وما يتعلق بدعوته وحفظه وحفظ من جاء به، وتصديق الكاذب ليس كذبا . وحسبك ان تتأمل في هذا الباب عتاب الله لرسوله إذ أذن لبعض المعتذرين من المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك وما علله به، وهو قوله (عفا الله عنك لِمَ اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلمَ الكاذبين)

واذا جاز على الانبياء المرسلين ان يصدقوا الكاذب فيما لا يخل بأمر الدين ولا

يترتب عليه حكم شرعي ولا شيء ينافي منصب الرسالة، افلا يجوز على من دونهم ان يصدقوا الكاذب في اي خبر لا تقوم القرينة على كذبه فيه ؟ ومن صدق شيئا يجوز أن يحدث به من غير عزو الى من سمعه منه . ولكن هذا كان قليلا في الصدر الاول من الاسلام، فقد ظل المسلمون عدة قرون ينقلون كل شيء بالرواية وإن كان بيت شعر او كلمة مجنون

﴿ تنبيه مهم ﴾

ان الاحاديث المشكلة الصحيحة الاسناد قليلة فما رواه ابو هريرة منها قليل من قليل، وما انفرد به منه اقل ذلك القليل ، ولا يتوقف على شيء منها اثبات اصل من اصول الدين ، والحمد لله رب العالمين

﴿ الجملة الخامسة الخاتمة لكلام الطاعن ﴾

﴿ استنتاجه من جملة دعاويه أن الشريعة لاقيمة لها في نفسها ولا في روايتها ﴾

قال بعد سرد ما تقدم عن الشبهات على رواية ابي هريرة ما نصه :

هذا هو الرجل الذي وضع مع ابن عباس اساس الشريعة . ولكن ما هي قيمتها ؟ ان السؤال مهم جدا، ويطلب الجواب عليه من الثلاث مئة مليون سني الموجودين في العالم. اه بحروفه

اشتملت هذه الخاتمة على دعوى باطلة ، واستفهام إنكاري تهكمي ، ووجه هذا السؤال فيها الى ثلاث مئة مليون سني[1] أي الى كل فرد من أفراد أهل السنة الذين يسكنون في جميع الاقطار ، ويتكلمون بعشرات من اللغات ، ولماذا ؟ لان السؤال مهم جدا في نظر القسيس المبشر المتصدي هو وجمعيته لتنصير كل هؤلاء المسلمين بعد عجزهم عن هذا السؤال المهم جدًّا !! مخ مخ

الجواب عن الدعوى

هذه الدعوى ظاهرة البطلان عند المسلمين وعند من له أدنى إلمام بشريعتهم

(١) قد اشتهر منذ عشرات من السنين ان المسلمين ثلاث مئة مليون وأول أوربي اشتهر عنه هذا القول عالم ألمانية غليوم الثاني ، والظاهر ان أهل السنة وحدهم صاروا يبلغون هذا العدد كما قالت مجلة الشرق والغرب ، وثم عشرات الملايين من الشيعة وغيرهم

وتاريخهم من النصارى وغيرهم ، سواء أراد بأساس الشريعة أصول أدلتها التي تستنبط منها – وهو الاقرب – أو أصول مقاصدها وهي العقائد والاحكام والآداب ، وأستغني عن بيان ذلك بما قلناه في مسألة أركان الشريعة الذي فندنا به القضية الثالثة من قضايا الجملة الاولى من مقاله (راجع ص ٢٨ ج ١) ثم نقول :

إن أبا هريرة وابن عباس ما وضعا أساس الشريعة ولا أركانها ، ولا أصولها ولا فروعها ، وانما رويا لنا كغيرهما من الصحابة الكرام الكثير الطيب من سنة الرسول ، وهي ثابتة الاسس والاصول

وقد بينا أن البخاري خرج لابي هريرة ٤٤٦ حديثا في صحيحه ، ونقول هنا انه خرج فيه لابن عباس ٢١٧ حديثا . وهذا القدر من روايتهما للاصول الموصولة من الاحاديث لم ينفردا به وانما شاركهما في رواية الكثير منه غيرهما ، ولو أحصينا ما انفرد بروايته أبو هريرة وحده من أحاديث الاحكام الشرعية لرأيناه قليلا جدا ، وعلمنا انه لو لم يروه لما نقصت كتب الاحكام شيئا كثيرًا ، وان ما عسى أن تنقصه يمكن أن يعرف حكمه من قواعد الشريعة الثابتة وأصولها القطعية ، كقاعدة رفع الحرج والعسر ، واثبات اليسر وترجيحه ، وقاعدة كون الاصل براءة الذمة ، وكون الاصل في كل الخبائث والمضرات الحرمة ، وفي كل الطيبات الحل ، وكون الضرورات تبيح المحظورات ، وغير ذلك مما لا مجال لتفصيله في هذا الرد

﴿ قيمة الشريعة الاسلامية ﴾

الجواب عن الاستفهام التهكمي

لا أرى شبها لسؤال القس الطاعن عن قيمة الشريعة الاسلامية الا السؤال عن الشمس ما فائدتها للدنيا ؟ وعن العافية ما فائدتها للناس ؟ وعن الماء والهواء ما فائدتهما للنبات والحيوان ؟ سواء كان السؤال سؤال انكار وتهكم أو سؤال استفهام ، وإننا نجيب عن هذا السؤال بجواب مجمل وجيز ، لان التفصيل لا يأتي الا بتصنيف كتاب كبير ، فنقول :

(١) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي ثبتت نبوة من جاء بها

بالبرهان العقلي العلمي الثابت الدائم، وملخصه أنه رجل أمي نشأ بين قوم أميين بلغ الكهولة ولم يقرأ كتابا ، ولم يكتب سطرا ولا حرفا ، ولا قال شعرا ولا ارتجل خطبة ، ولا رأس قبيلة ولا ساس قرية ، ولا انتحل كهانة ولا عرافة ، ولا عرف شيئا من شرائع الامم واديانها — ثم قام في سن الكهولة بدعوى النبوة ، وأيد دعواه بكتاب اشتمل على اخبار الغيب الماضية والمستقبلة، وسنن الله في الدين والمدنية، وعلى أصح علوم العقائد الالهية، المؤيدة بالبراهين العقلية والعلمية ، وأصلح علوم الاخلاق والفضائل النفسية ، والعبادات الجامعة بين المنافع الروحية والجسدية ، وأعدل قواعد الشرائع السياسية والمدنية الخ ثم انه اجتث بهداية هذا الكتاب جراثيم الوثنية ، وطهر الامم من الخرافات التقليدية واخلاق الجاهلية ، فكان للناس بذلك دين كامل وشريعة عادلة وأمة مؤلفة من جميع الشعوب والقبائل ، ودولة احيت الحضارة وامتدت من المشرق الى المغرب في جيل واحد

فكان مثل محمد النبي الامي صلى الله عليه وسلم كمثل رجل جاء بلدا مصابا بالاوبئة المجتاحة والامراض المعضلة، وادعى انه طبيب وايد دعواه بكتاب في الطب والعلاج طهر به ذلك البلد كلها من الامراض والاوبئة ، فأصبح أهله متمتعين بكمال الصحة والعافية

فكما يجزم كل عاقل بأنه يستحيل على غير الكامل في علم الطب أن يؤلف كتابا في الطب يزيل بالعمل به الاوبئة ويشفي المرضى — كذلك يستحيل بالاولى أن يقدر رجل أمي على الاتيان بأخبار الغيب وعلوم الدين والشرائع والآداب فيصلح بها أديان أمم كثيرة وآدابها وأخلاقها وأحكامها وسياستها ، الا أن يكون نبيا مؤيدا بوحي الله وعنايته العليا ، بل يستحيل صدور مثل هذه العلوم والأعمال من واحد أو من جماعة تعلموا جميع علوم البشر وعلوم الأديان في أعلى مدارس هذا العصر الجامعة . دع إعجاز القرآن ببلاغته وأسلوبه وسائر معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة الجامعة بين هداية الدين الالهي الحق ، وبين ثمرات عقول العلماء المجتهدين ، الواقفين على مصالح البشر وما يقوم به العدل بينهم ، وما سواها فاما ديني محض لا مجال فيه لعقل ولا راي ، واما

وضعي ناقص لايحترم في السر كما يحترم في الجهر

(٣) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي تواتر كتابها تواترا حقيقيا ، ورويت سنتها رواية متصلة الاسناد ، ودُوِّن تاريخ رواتها تدوينا مبنيا على ركني النقد والتمحيص ، الذي يميز به بين الصحيح وغير الصحيح ،

(٤) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي حررت البشر وأعتقتهم من رق رؤساء الدين ، الذي أرهق الغابرين ، فلم تجعل لأحد سيطرة روحية على أحد ، فليس فيها كهنة ولا قسيسون يمتازون بمناصبهم الدينية على غيرهم ، أو تتوقف اقامة شيء من أمر الدين عليهم ، وانما خوطب البشر بها على سواء ، فهم يتفاضلون فيها بعلومهم وأعمالهم الكسبية ، لا بمناصبهم الموروثة ولا أنسابهم الشريفة ،

(٥) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي أعتقت البشر من رق الملوك المستبدين الذين انتحلوا لانفسهم حق الحكم بمحض الهوى والارادة ، وحق وضع الشرائع والقوانين بالذات أو بالنيابة ، وحق الامتياز في الحقوق الشرعية على غيرهم من أفراد الامة ، فجعلت أمر الامة شورى بين أهل الحل والعقد ، من أهل العلم والرأي ، الذين يولون عليها من يرونه أصلح لتنفيذ شريعتها ، ولم تجعل للخلفاء أو السلاطين ، امتيازا على أحد من الفقراء والصعاليك ، لا في حكم من الاحكام المدنية ، ولا في عقوبة من العقوبات الجزائية ، وقد وافقتها بعض الامم في بعض هذه الاصول أو اقتبستها منها ، بعد أن ترك المتغلبون على المسلمين اقامتها ، ولكن لم يبلغ احد شأوها الى هذا اليوم ، وإنما صار بعضهم أقرب اليها ، ممن يسمون أنفسهم أهلها .

(٦) هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي ساوت بين اهلها المؤمنين بها ، وبين الكافرين بها اذا تحاكموا اليها ، سواء كانوا من اهل ذمتها ، او من الاجانب المعاهدين لحكومتها ، او الحربيين الداخلين في امان احد من اهلها ، فلا فرق في احكامها القضائية بين أبناء الرسول وامراء المؤمنين ، وبين أضعف أهل الكتاب أو الوثنيين ، ونحن نرى أرقى الافرنج وأشهرهم بالعدل يميزون أنفسهم على غيرهم ، فلا يرون المصري والهندي مساويا للانكليزي ، ولا الاسيوي مساويا للامريكي

(٧) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي رفعت شأن النساء وأعطتهن

حقوق الاستقلال التام في التصرف بأموالهن ، وساوت بينهن وبين أزواجهن في جميع الحقوق بالمعروف، الا رياسة المنزل وزعامة الاسرة ، وان كلمة وجيزة من كلمات القرآن الحكيم في ذلك لأبلغ من كثير من الاسفار التي ألفت في المطالبة بحقوق النساء أو ما يسمونه تحرير المرأة ، الا وهي قوله عز وجل

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾

وهذه الدرجة التي أعطيت للرجل بحق — وهي رياسة البيت — لانه أقدر على الكسب والحماية ، والمطالب بجميع النفقة ، تشبه الرياسة العامة فيما شرع فيها من الشورى كما يدل عليه قوله عز وجل في مسألة ارضاع الولد وفطامه (فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) وقد اهتدى كثير من الامم ببعض هدي هذه الشريعة في هذه المزية ولم يبلغ أحد منها شأوها ، ولكن أهلها قصروا في إقامتها ، حتى صاروا حجة عليها عند من يجهلها

(٨) هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي وضعت للحرب نظاما حرم فيه العدوان والتمثيل والتخريب . وقتل من لا يقاتل من النساء والشيوخ والاطفال والمنقطعين للعبادة، فجعلتها ضرورة تتقدر بقدرها، وأمرت بالجنوح للسلم أن جنح العدو لها ، وقد بين المنار فضلها في ذلك على قوانين أوربة وفضل أهلها في حروبهم على الاوربيين في مقالة نشرت في مجلد السنة الماضية. وقد انصفنا أحد حكماء الافرنج بقوله « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب »

فأين منها شريعة التوراة التي بين أيدي اليهود والنصارى وهي التي أوجبت في الفصل العشرين من سفر تثنية الاشتراع استعباد جميع أفراد الشعب المسالم الذي يختار الصلح على الحرب ، وقتل جميع ذكور الشعب الذي يحارب عند الظفر به وجعل جميع نسائه وأطفاله وما يملكه غنائم — هذا اذا كان من المدن البعيدة جدا عن شعب التوراة التي لا يسهل عليه سكناها؛ وأما الشعوب القريبة التي يسهل عليه امتلاك بلادهم فهذا نصها فيهم « ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيبك فلا تستبق منها نسمة ما »

(٩) هذه هي الشريعة الوحيدة التي فرضت على الاغنياء نصيبا معلوما مما يزيد من أموالهم عن نفقاتهم يصرف لإعانة الفقراء والمساكين العاجزين عن كسب يكفيهم، ولمساعدة الغارمين على ما يحملون من الغرامات للاصلاح بين الناس، ولابناء السبيل الذين يسيحون في الارض فتنفد نفقاتهم قبل عودتهم الى أوطانهم، ولغير ذلك من المصالح العامة، ولو أقام المسلمون في هذا العصر هذا الركن كما كان يقيمه سلفهم الصالح لما وجد فيهم فقير مهين، ولكانت حالهم الاجتماعية أفضل من حال أرقى الأمم، ولكان السائحون منهم لاكتشاف مجاهل الارض وخرت بقاعها والاعتبار بأحوال الامم فيها أكثر من سائحي غيرهم من الامم، اذ حثهم الله في كتابه العزيز على السياحة النافعة بمثل قوله في سورة الحج (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) وقوله في سورة المؤمن (أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) وقوله في سورة آل عمران (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا) الخ

(١٠) ان هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع الالهية، وحكمة ذلك أن الله تعالى قد اكمل بها الدين الحق، فجعلها جامعة بين مصالح الروح والجسد، ومنح الامة حق الاجتهاد واستنباط الاحكام، بما وهب لها من فضيلة الاستقلال، بعد ان أعدها لذلك بسنة الارتقاء، وبهذين كانت موافقة لمصالح البشر في كل زمان ومكان، خلافا لما يجنيه عليها الصديق الجاهل، وما يتجناه عليها العدو العاقل، وقد بينا هذه المسألة في التفسير وفتاوى المنار ومقالاته مرارا، كمقالات المصلح والمقلد، والفتاوى البارزية، وتفسير (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) وتفسير (اليوم أكملت لكم دينكم) وتفسير (لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) وطالما فندنا شبهات المنكرين لذلك

فهذه بعض مميزات هذه الشريعة التي يعرف قيمتها المنصفون من غير أهلها. فان أمكن لهذا المجادل فيها أن يشكك أهلها فيها بما زعمه من ارتياب بعض الناس في رواية أبي هريرة رضي الله عنه أو بغير ذلك من الدعاوي (ولن يمكن) فلا يجني من ذلك الا انصراف ثلاث مئة مليون سني ربما يتبعهم زهاء ثلاثين مليونا من الشيعة

وسائر الطوائف الاسلامية عن الايمان بأن المسيح عليه السلام رسول الله المعصوم وكلمته التي ألقاها الى مريم الطاهرة البتول، الى مثل اعتقاد ملاحدة الاوربيين من الانكليز وغيرهم كمؤلف كتاب (نشوء فكرة الله) ومؤلف كتاب (اضرار تعليم التوراة والانجيل) وغيرهم من الماديين الذين يطعنون فيه وفي أمه الطاهرة ، ويزعمون ان آداب انجيله مفسدة للبشر لانها تعلم الناس الذل بالخضوع لكل سلطة وإن كانت أجنبية جائرة ، وادارة الخلدين لكل من يريد صفعهما ، وتدفعهم الى الفقر بتحريم الادخار والاهتمام بالمستقبل وحرمان الاغنياء من ملكوت السماء.. (مت١٩:٢٣)

لو كان الشك في الشريعة الاسلامية يفضي الى تنصر الشاك فيها حتما لكان للطاعن المشكك فيها — وهو داعية لدينه — عذر ظاهر في التشكيك ، ولكن لا تلازم بين الامرين ، بل علمنا بالتجارب والاختبار أن اكثر الذين يمرقون من الاسلام يكونون ملاحدة معطلين ، وأن الافراد القلائل من المسلمين الذين دخلوا في النصرانية لايكاد يوجد واحد منهم كان مسلما حقا ثم صار نصرانيا ظاهرا وباطنا ، بل هم في الغالب من العوام الفقراء الكسالى الذين يظهرون النصرانية للمبشرين لاجل أن يطعموهم ، وهم على جهلهم بحقيقة الاسلام لا يفضل أحد منهم تقاليد النصرانية على ماعرف من تقاليد قومه، وقلما يفتح لاحد منهم باب للرزق عند المسلمين الا ويفرّ اليه مفضلا له على الارتزاق بالنفاق ، وطالما سعوا الى ذلك وطرقوا له الابواب وكلما فتح لاحدمنهم باب منها تاب وأناب، فأين هؤلاء الغوغاء ممن يدخلون في الاسلام من كبراء الانكليز وفضلائهم وغيرهم من نصارى الغرب والشرق كاللورد هدلي

قال حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني : ان المسلم لا يمكن أن يصير مسيحيا — وعلل ذلك بقوله — لان الاسلام مسيحية وزيادة ، أي يتضمن الايمان بالمسيح (ص) وبما جاء به بالاجمال ، والايمان بمحمد (ص) وبما جاء به بالتفصيل. وعللناه نحن بأن دين الله واحد في أصوله من التوحيد والاخلاص والفضيلة ، الا أنه سار كسائر الشؤون المتعلقة بالبشر على سنة النشوء والارتقاء فكان كماله في آخره (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) فالمسلم

ينظر الى ملة كل من نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كما ينظر الانكليزي الى القوانين التي كان عليها قومه في القرن السادس عشر والسابع عشر — الى القرن العشرين ، ولكنه لا يترك ما ارتقى اليه من القوانين المناسبة لحال زمنه هذا الى ما ارتقى عنه من قوانين القرون الخالية، ولا يعدّ نفسه بما ارتقى اليه قد خرج عن كونه انكليزيا . وكذلك المسلم يؤمن بجميع الانبياء وبحقية أديانهم وشرائعهم ومناسبتها لازمانهم وبأن الشريعة المحمدية كانت هي الخاتمة المتممة المكملة الناسخة ، والمسلمون يعظمون جميع الرسل (لا نفرّق بين احد من رسله) ولكنهم يتبعون الاخير منهم

وانا نرى المبشرين يحاولون اقناع المسلمين بدلالة القرآن على تفضيل عيسى على محمد عليهما الصلاة والسلام ، ولو تم لهم هذا لما أفادهم شيئا ، فان المسلمين لا يفرقون بين الرسل من حيث انهم رسل ، وانما فضل الله بعضهم على بعض بكثرة المزايا ودرجة انتفاع البشر برسالتهم ، وقد فضّلهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعموم بعثته وإكمال الدين المطلق بما جاء به وكثرة من اهتدى به ؛ ونعتقد أن عيسى لم يبعث الا الى خراف إسرائيل الضالة كما قال عن نفسه (مت ١٥ : ٢٤) ولو فرضنا ان عيسى أفضل بما امتاز به في خلقه وخصائصه لما كان ذلك موجبا لترك الثابت عندنا من شريعة محمد صلى (ص) العامة المكملة الخاتمة الناسخة لما قبلها الى ما لم يثبت عندنا من شريعته الخاصة المنسوخة ، وعلماء الاصول منا يفضلون ابراهيم على موسى وعيسى (ص) ولكنهم لا يقولون انه كان يجب على بني اسرائيل ترك شريعة التوراة الى ما خالفها من شريعته كما أن من يفضل محمد علي باشا الكبير على أحفاده بخصائصه الفطرية لا يرى ذلك موجبا لترك قوانينهم الى قوانينه ، على أن القاعدة عندنا أنه قد يوجد في المفضول من المزايا مالا يوجد في الفاضل كما يفضل بعض أحفاد محمد علي جدهم بالعلم وبعض الاخلاق والاعمال

الحق أقول لكم أيها المبشرون المحترمون ان مجادلاتكم وطريقتكم في دعوة المسلمين الى دينكم قد جاءت اليوم بضد ما تريدون وتريد جمعياتكم ، فهي تزيد المسلمين استمساكا بدينهم وبعدا عن دينكم ، وأكبر ضررها الديني في

المسلمين أنها حملت كثيرا منهم على ضد ما يجب عليهم شرعا من حب سيدنا عيسى وأمه وحواريه والثناء عليهم بما أثنى الله تعالى ورسوله (ص) فان كثيرا من العوام صاروا يعتقدون مما يسمعون منكم ويقرءون أو يقرأ عليهم من كلامكم ضد ما يقرره الاسلام من كون الرسل اخوة يجب الايمان بهم وحبهم جميعا، بل أرى هذا التأثير قد دب الى خواص المتعلمين على الطريقة الافرنجية حتى المشهورين منهم بالتساهل الديني

ومن العجيب ان واحدا من كبار هؤلاء علما ورتبة صرح أمامي بأنكم بغضتم اليه المسيح ... فقلت له لا ينبغي لمثل سعادتك ان يسترسل مع وجدانه الى هذا الحد، ولا يخفى عنك ان بغض المسيح عليه السلام كفر، فقال ان هذا قد ثبت في نفسه ولا يستطيع دفعه

أيها المبشرون المحترمون انكم تريدون تشكيك الناس في الشريعة الاسلامية بالطعن في عدالة أبي هريرة، وقد علمتم ان الطعن في أبي هريرة لو كان صادقا ماحط من قدر هذه الشريعة شيئا فكيف وهو باطل، ولو لم يخلق أبو هريرة لما نقصت الشريعة شيئا، ولكن كثيرًا من المسلمين المتعلمين على المنهج الافرنجي يرون ان أكبر الشبهات على الاسلام، ما أثنى القرآن والرسول (ص) به على المسيح وأمه عليهما السلام، حتى انني قلت منذ سنين ان أقوى الحجج للمسيح شهادة القرآن له، وأقوى الشبهات على القرآن شهادته للمسيح، فهل رأيتم قول القرآن فيه (انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) قليلا حتى طمعتم باقناع المسلمين بأن يقولوا كلمة أكبر من ذلك، ورأيتم قوله فيه (وأيدناه بروح القدس) قليلا أيضا فطمعتم بأن تقول فيه كما تقولون وان لم نعقل ذلك ولم يقم عليه برهان مبين

أيها المبشرون الغيورون انكم تعلمون أن اشتغال الناس بالفلسفة المادية والمدنية المادية قد فتن كثيرا من المسلمين بملاحدة الاوربيين الماديين الذين مرقوا من النصرانية وطعنوا فيها أشد الطعن لان تعاليم الاناجيل أشد التعاليم وأقساها على الماديين اذ هي روحانية محضة، وأما الاسلام فهو دين وسط، جامع بين حقوق الروح وحقوق الجسد، فلا تؤثر فيه دعوة النصرانية، لانه كما تقدم مسيحية وزيادة،

وانما يخشى على الجاهلين بحقيقته من تيار المادية، وحرية الشهوة الحيوانية، فمدارسكم الافرنجية الدينية منها وغير الدينية ، هي التي تكفل لكم التشكيك في الاسلام، لا الطعن في أبي هريرة ولا ابن عباس ، فتعالوا نتعاون على مجاهدة هذه تعاليم المادية، التي كانت آفتها شديدة على الاسلامية ولكنها على النصرانية أشد، ودليل ذلك انها لم تمنع كثيرا من المتعلمين الباحثين من ترك النصرانية الى الاسلام ، وان الملاحدة منا أقل من الملاحدة منكم

ما رأيت كلاما لاحد من الاوربيين المستشرقين في الاسلام والمسلمين ينبي على الخبرة والمعرفة كـكلام الدكتور سنوك الهولندي، وقد بين في خطبته التي ألقاها منذ سنين في مدرسة كليفورنية الجامعة في الولايات المتحدة أن القضاء على الاسلام الديني بالتبشير المسيحي محال ، وان المسلمين لن يكونوا نصارى أبداء وان طريقة اللاتين في بث التعليم المادي في المسلمين، افعل في زلزال الاسلام من طريقة البروتستانت في بث دعوة الدين ، واعتبروا مع هذا ما ترونه من تفضيل أكثر المسلمين للانكليز والامريكان على اللاتين

انا لا أخاف على المسلمين من مجلاتكم ولا من كتبكم ورسائلكم ، وانما أخاف على المسلمين من الفلسفة المادية والمدنية الشهوانية ، ومن منافقيهم وعباد الشهوات منهم ، فهم الذين يجنون على دينهم ودنياهم، وانما أوصيكم بأن تتجنبوا فيما تقولون في مجامعكم التبشيرية، وما تطبعون في رسائلكم وصحفكم الدورية، كل ما يثير العصبية، ويخدش المودة الوطنية ، (٥ : ٥٢ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم فينبئكم فيما كنتم فيه تختلفون ٦ : ١٧٥ ٨٤ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا)